في الفضاء اللغوي، "الفضاء" "فضاءات" متعددة!

غسان مراد

يتلاقى في هذا العدد من مجلة دراسات جامعية في الآداب والعلوم الإنسانية، الصادرة عن كلية الآداب في الجامعة اللبنانية، مفهوم الفضاء ببعض تجلياته المصطلحية؛ فنرى أنه في معناه الأولي، بحسب المعاجم العربية، أقرب إلى الجغرافيا، أي بمعنى "ما اتسع من الأرض. وكلمة الفضاء من الدار، تعني المكان الواسع من الأرض أمامها. ويوجد للمفردة معانٍ أخرى. على سبيل المثال، المكان الموجود بين النجوم والكواكب ومساحته التي لا يعلمها إلا الله"، وغيرها من المصطلحات الفلكية المتعلقة بالفضاء الخارجي.

ولكن عندما نتطرق إلى "فضاءات معرفية" خارج هذا "الفضاء" الاصطلاحي، نرى أن المفردة تشكل متلازمة لغوية عندما تدخل إلى بعض الكلمات، لتولد، على سبيل المثال وليس الحصر، عدة متلازمات لفظية، كالفضاء الخارجي، والفضاء الفلكي، والفضاء الجغرافي، والفضاء العام، والفضاء الرقمي، والفضاء السيبراني، والفضاء التربوي، والفضاء التعليمي، والفضاء اللغوي، والفضاء التاريخي، والفضاء السياسي، والفضاء الإعلامي، والفضاء المسرحي، إضافة الى مفردات تأتي مفردة قبل "الفضاء" لتشكل مصطلحات، كقنوات الفضاء ورواد الفضاء وغيرها من المصطلحات المركبة.

في هذا العدد، نرى في المقالة الأولى التي تعالج "أثر عدائية المساجين الموجودين في سجن الأمن العام اللبناني على راشدين موجودين خارج السجن"، أن مشكلة السجون تتعلق بالفضاء المحصور بين أربعة جدران، حيث لا توجد أي إمكانية لتخطي هذا الفضاء القسري، فمفهوم السجن بحد ذاته هو تضييق المساحة التي يتحرك بها الإنسان، أي تحديد فضائه الحركي، الذي يؤدي إلى اضطرابات نفس–جسدية وانفعالية وعدائية من جراء المعاناة والحرمان من الحرية، على عكس من هم خارج السجن، أي في فضاء أوسع.

يتعلق الموضوع الثاني بمفهوم الفضاء السياسي، من خلال دراسة عن "العلاقات السوفياتية–التركيّة بعيد وصول البلاشفة إلى السلطة ١٩٢٠–١٩٢٥ في ضوء الوثائق السوفياتيّة". تتحدث الدراسة عن نسج العلاقات الجديدة مع المحيط والجيران بين الأتراك والسلطة البلشفية وباقي الدول البلقانية للحد من طموحات القياصرة الروس في التوسع جنوبًا للوصول إلى المياه الدافئة، أي في توسيع الفضاء السوفياتي.

أما الموضوع الثالث عن "التّشبيه في الكتاب المقدّس العهد الجديد (الأناجيل الأربعة)"، فهو يرتبط بحصر الفضاء الدلالي الذي يشكل شبه مجموعة من الفضاء اللساني، أي تحديد منهج معين من المناهج – التداولي في هذه الحالة – لدراسة النّصّ من جوانب عدّة: السّياق، والبيئة، والدّلالة، ومستوى المرسِل والمُرسَل إليه، والعلاقة التّداوليّة بينهما. وقد حددت النتائج أنّ فضاء التّشبيه في الأناجيل الأربعة أدّى دورًا إفهاميًّا، إذ أسهم في تجسيد المفاهيم الدّينيّة التّعليميّة لتتواءم مع المستوى الإدراكيّ للنّاس الموعوظين.

وفي الفضاء الجغرافي، نجد في هذا العدد عدة مقالات تندرج تحت عناوين مختلفة، تتحدّد بفضاءات جغرافية متنوعة، كفضاء الأراضي، ثم الفضاء المائي، والفضاء البيئي، والفضاء السكاني، والفضاء الإجتماعي العائلي.

تحت عنوان "نمذجة استصلاح الأراضي في حصرون وبزعون وبقرقاشة (قضاء بشري – لبنان) وفق معايير المشروع الأخضر – تطبيق نظم المعلومات الجغرافية"، نجد دراسة تجريبيّة لتحديد المناطق المحتملة لاستصلاح الأراضي في شمال لبنان بهدف تطبيقها على المستوى الوطني.

ويُظهر النموذج المُعد في هذه الدراسة، بناءً على نظم المعلومات الجغرافية، أن ١٣٪ (٢٢٣ هكتارًا) من إجمالي المساحة (١٧١٤ هكتارًا) هي مناطق قابلة للاستصلاح. ويظهر التحقق من النتائج على الأرض صحة النموذج الأول ودقته. وقد تمّ تعديل النموذج الأول وتبسيطه عبر إعداد نموذج ثانٍ، إذ إن الأخير لا يأخذ بالاعتبار قدرة التربة على الاحتفاظ بالمياه، وأتت النتائج بأرقام قريبة جدًا من النموذج الأول.

أما المقالة التالية في الفضاء المائي، فهي تحت عنوان "هيدروجيولوجية ينابيع منطقة المضيق (نهر إبراهيم– كسروان)"، وهي تثبت العلاقة، بواسطة التحاليل الكيميائيّة التي دلّت على أن مياه المضيق وغوشريا هي نفسها، مع تركيز متشابه لكل العناصر الأساسيّة المحلولة في المياه.

ويشير البحث إلى مشروع رائد جرى تنفيذه على نبع المضيق، حيث حفرت خمس آبار ارتوازية إلى عمق ٨٠ مترًا، وأعطت مياهًا تقدّر بـ٧٥.٠٠٠ متر مكعب في اليوم في فترة الشحّ، ما يؤمن مياهًا وافرة للساحل الممتد من مدينة جونيه إلى مدينة جبيل.

وفي البحث التالي الذي يحمل عنوان "وادي الصمت: مغامرة لاكتشاف الآخر: مكان رمزي واختلافات لغوية اجتماعية"، تجري دراسة الوادي كمساحة استعارية توضح العلاقة بين شعبين مختلفين، كما تُدرس الاختلافات الاجتماعية واللغوية التي ظهرت أثناء السرد، والتي ترمز إلى مكانين متناقضين.

بعد ذلك، تحت عنوان "سياسة إدارة النفايات البلدية في مقابل تصور المساحة في محافظة البقاع"، يشير البحث إلى أن أي مساحة جغرافية هي نتيجة التاريخ ونتاج العمل البشري، إذ إن لكل مجتمع طريقته الخاصة في تنظيم نفسه.

ويؤكد أن إدارة النفايات المنزلية مرادفة لكارثة بيئية عندما تكون السلطة غارقة في التعامل مع جبال النفايات المنزلية المتولدة تحت الإدارة المركزية لإدارة النفايات البلدية الصلبة. وفي مواجهة هذه الهشاشة في إدارة النفايات البلدية، يتدهور مفهوم الحيّز المعيشي. وتهدف هذه الدراسة إلى حصر التركيبات في مختلف مناطق محافظة البقاع، وإلى تسليط الضوء على تأثير سياسة الإدارة المركزية وخدمات النظام البيئي لهذه المساحات المشتركة.

وفي الفضاء السكاني أخيرًا، يأتي بحث "السكان والحيّز الجغرافي في قضاء الكورة في العام ٢٠١٨"، الذي يهدف إلى التعرف إلى العلاقة البينية بين سكان قضاء الكورة والحيّز الجغرافي من خلال بعدين: الكثافة السكانية، والتنقل المكاني الذي يتجلى في ظاهرة الحراك النسائي بدافع الزواج.

وقد ظهر جليًّا التفاعل بين السكان والحيّز الجغرافي في هذا القضاء. من ناحية، لا تعد الكورة مكتظة سكانيًّا، باستثناء بعض البلدات الكبرى. ومن ناحية أخرى، تجلت علاقة السكان بالحيز الجغرافي من خلال المتزوجات الغريبات القادمات من خارج البلدة، فكانت النسب كبيرة في البلدات التي عرفت أدنى معدلات من السكان، ومتدنية في البلدات التي عرفت أعلى نسب من السكان، بسبب مروحة اختيار الشريك الواسعة في البلدات الكبيرة منها في البلدات الصغيرة.

وفي محور طلاب الدكتوراه، يأتي في الفضاء اللغوي نص تحت عنوان " تمثلات اللغة الفرنسيّة الإجتماعيّة والثقافيّة لدى طلاب الجامعات اللبنانيّة الفرنكوفونيّة الخاصّة"، وهو عبارة عن دراسة ميدانية تمت باستخدام الاستبانة كأداة بحثيّة. وبيّنت النتائج أنّ الفرنسيّة ما زالت لغة أجنبيّة أساسيّة في لبنان، ولغة ثقافيّة، في نظر الطلاب، لأنّها مترسّخة في النظام التعليمي اللبناني، لكنّهم في الوقت نفسه لا يجدونها متجذّرة في ثقافتهم، رغم استعمالها كلغة للتخاطب في المدرسة والعائلة والجامعة وبين بعض فئات المجتمع، وما زالت تحمل موروثات تاريخيّة واجتماعيّة وثقافيّة حاضرة في يوميّاتهم، ولو بنسب متفاوتة في الأهميّة. يعود السبب إلى انتشار اللغة الإنكليزيّة الواسع في أوساطهم ويعود ذلك لكونها لغة عملانيّة يحتاجها الطلاب أكثر في تصوّرهم لمستقبلهم. في الوقت نفسه، تسعى مؤسّسات الفرنكوفونيّة بشكل متواصل للإبقاء على اللغة الفرنسيّة حاضرة في لبنان عبر التعليم والمشاريع المختلفة الموجّهة إلى الطلاب.